كُرّاس الذكريات

قرّرت شقيقة قطر الندى الأكبر سنّا "فاتن" أن تُفْرِد كرّاسا لتكون كراس ذكريات تحتفظ بها لحين الكبر فتتذكّر بها صديقاتها المقرّبات والمربّين الجيّدين، فتأسّست قطر الندى بأختها وتبِعتها في ذلك وخصّصت كرّسا للذكريات. كُرّاس الذكريات تُخصّص صفحاتها ليكتب الأصدقاء فيها والمربّون وصاحب الكرّاس بعض الكلمات الجميلة كالحبّ والتمنّيات بالنجاح والسعادة ومشاركة بعض الأحداث والتجارب المشتركة واللحظات السعيدة التي تسرّ صاحب الكرّاس عندما يقرأها في المستقبل.

بهذا الهدف الذي وُضعت لأجله كُرّاس الذكريات فإن قطر الندى، وهي الفتاة الخجولة والمرهفة الإحساس والعاطفيّة والمتأثّرة بسهولة، الفتاة التي تروم الاندماج مع الآخرين بشكل تدريجي وحذر وعندما تكتسب الثقة اللازمة، لن تكون كرّاس ذكرياتها مفتوحة للجميع المقرّب والغريب على حدّ سواء. ستنتقي الذين سوف تسمح لهم بالكتابة انتقاء حسب الأقرب إلى القلب والأكثر ودّا وحنانا ووداعة معها والمتفهّم لها والمتعاطف معها، ستختارهم على حسب وداد قلبها.

وممّا لاشكّ فيه أن تتصدّر المعلّمة "حياة" قائمة المنتقين. في صباح أحد الأيّام استأذنت قطر الندى من والدها وذهبت مع والدتها لمنزل المعلّمة، وفي الطريق كانت قطر الندى تمشي وكأنّ الأرض فُرشت لها بساطا حريريّا من منزلها لمنزل المعلّمة المحبوبة، كانت قدماها تمشي بخطوات متوازنة وثابتة وفيها شيء من البطء، بدت وكأنّها ترقص، وبهذه الرقصة تعلّم الخجولات اللاتي لا تسعفهنّ إمكانيّاتهنّ في التواصل ولم تُتح لهنّ الفرصة ليكنّ كما يحببن وكما ينبغي لهنّ أن يكونّ، كيف يمكن تجاوز مشاكلنا، التي تستغرقنا بأكملنا ولا تكاد تدع مجالا لأمل شحيح لوجود شيء يرسم الفرحة على وجوههنّ، كيف يمكن تجاوز كل ذلك بنعمة واحدة يجعل الله تعالى فيه لطفه وبركته، شخص واحد فقط يمكن أن يكون وجوده معجزة من الله، شخص يتفهّم احتياجنا في لحظة معيّنة ويقول لنا "لقد تواقحت الحياة بالقسوة عليك" وهذا الشخص مبعوث الله للمنكسرة قلوبهم والغارقة أفكارهم في البحث عن الحاجة عن أساسيات الحاجة؛ الحاجة للفرح الحاجة للعيش، للتواصل، بالتواجد، للنظر فيما نظنّ في مستوى ظالم من الوهم أنّنا قد منعنا من حق النظر لكل جميل في يومنا وسماع ما يسرّنا ولو إلقاء التحيّة حتّى لنشعر أنّنا لنا حق

التواجد ولو أنّبنا ضـميرنا بعد ذلك بأنّنا سـرقنا هذا الحق الذي لا نرى أنفسـنا أهلا له إلّا بعد خوض معاناة الجحيم ولن يُتكرّم علينا بمنحنا إيّاه.

في لحظة واحدة فقط لا غير، منحت المعلّمة "حياة" ابتسـامة مع فرصـة سـرقتها من عاصـفة الحياة لتهديها قطر الندى لا لشـيء سوى لأنّ ذلك من حقّها الذي لم تعرف عنه شيئا يوما من الأيّام، تلك الابتسامة والفرصة بثت روحا جديدة لقطر الندى وبها خلقها الله من جديد فهي الآن مولودة جديدة لم تختبرها الحياة بسـوء أبدا ولدت مع معتقدات جديدة أدخل فيها اعتقاد أنّ الحياة فيها ما فيها من التقصـير، ولكنّها لا يمكنها أن تسـلبك ما أعطاه الله لك.

وصـلت السـيّدة "سُـميّة" وابنتها باب دار المعلّمة، طرقت الأمّ الباب وجلسـتا تنتظران، وما هي إلّا لحظات تحدّد بالثواني فقط حتى فُتِح الباب وظهر لقطر الندى من بعثه مخلّصـا لها وباعثا لروحها من جديد ومحيي قلبها الذي توقّف عن النبض ولا تعرف أَمَات أم أصـابه مرض سـيؤدّي به عاجلا أم آجلا للهلاك، أشـرقت المعلّمة بوجهها المؤنس الذي تسبب بلا سبب بطبع اعتقاد في ذهن قطر الندى وسلّمت به مصدّقة لا تُكذّب به، اعتقاد أنّ هذه المعلّمة تماثل أمّها في ملامح وجهها–والواقع أنّ لا تشابه يذكر أبدا سوى في أنّ كلتاهما انثى وكلتاهما أمّ فقط–الذي بدا لها كلّما وقعت عيناها عليه بدا لها حنان أُمّها وتفانيها لإسـعادها وتعاطفها معها حدّ غيوم السـماء وما بعدها، بدت لها في وجهها قدرة أُمّها على الولوج في قلبها المتعب متشـابك الآلام وعالي المنحدرات. تبسّـمت "حياة"، ابتسـامة الحياة بُثّت في روح قطر الندى، لمّا سـمعت كلام الأمّ بأنّ ابنتها جاءت بكرّاس ذكرياتها لتكتب معلّمتها شيئا تتذكّرها به. تتذكّرها بلسما وشفاء يوم تكبر ويعاودها وكس الطفولة، تتذكّر بأنّ معلّمتها كانت مبعوثة الله والذي ذكرها في طفولتها على صـغير حجمها وتفاهة تأثيرها–كما كانت ترى نفسـها–بُعثت لها يوم أيِسـت من وجود أحد ما في هذا العالم يكترث ليجلي عنها الحزن ويهتمّ لأمر سـعادتها، هذه السـعادة التي كان يجب ان تكون حقّ لها كطفلة لا ينبغي لها ان تحمل في قلبها ما كانت تحمل هي، مشـاكل عائليّة تضييقات سياسيّة بسبب نشاط والدها السيّد "جميل"، فقر لا يكاد يفسح لها مجالا بأن تحلم بأنّ يوما ما ستكون شخصـا يحتاجه النّاس ولكنّ الله الذي فوق الزمان والمكان ومسبّب الأسباب ومزيلها سيجعلها مثلا ومثالا للصـمود والثبات والقدرة على التغيير في هذا العالم.

أخذت "حياة" كرّاس الصـــغيرة وأخذت تكتب ومع كل كلمة كانت تكتبها كانت ترمق قطر الندى بنظرة ملؤها الحب والحنان، نظرات توصـــيها فيها بأن تعتني بنفســـها وكأنّها كانت تعلم ما ينتظر هذه الطفلة وما ســـتكون عليه يوما ما، كانت عيونها الحانية تقول لها: "ستكونين يوما ما مخلوقا ملائكيّا في هذا العالم، فأوصـيك بنفسك كثيرا لأجل هذا العالم. فقط ثقي بطريقك واصبري، الأمر لا يحتاج سوى الصبر منّا فقط أمّا التغيير فالله الوكيل على ذلك"

بعد الانتهاء من الكتابة أعادت المعلّمة الكرّاس للطفلة ومســـحت على رأســـها وقبّلتها، ثمّ توادعتا، ثم دخلت "حياة" بيتها وأغلقت الباب. وأخذت قطر الندى كرّاسها تتصفّحه بسرعة حتى تعثر على الصـفحة التي كتبت عليها المعلّمة، ثم عثرت عليها، ووضـعت اصـبعها السبّاب فاصلة على تلك الصفحة لتعود لها بعد عدّة خطوات بسهولة لأنّها لم تستطع أن تتحمّل أن تأخّر عن قلبها سقايته التي سيكتفي بها ارتواء حتّى تحصـل قطر الندى على شهادة الباكالوريا وتدخل الجامعة لتحتاج وقتها من يجدّد لها سقاية قلبها.

فتحت قطر الندى الكرّاس وأخذت تقرا بكل حماس وفرحة تكاد تصيبها بالإغماء: "تلميذتي الحبّوبة قطر الندى–ارتفع كتفها قليلا تعبيرا عن ســـعادتها التي غمرتها بعد هذه الكلمة الصـادقة–تمنّياتي لك بالنجاح والتوفيق في دراسـتك وفي حياتك. 2007/06/15" أغلقت قطر الندى الكُرّاس وقد علت تعابير وجهها ابتســامة عريضــة تأبى أن تُخفى وتراقصــت داخل قلبها نبضــاته على نغم الفرح والســرور، ولم تتمالك نفســها حتّى ألصــقت الكرّاس بصدرها بكامل إحساس الحب الذي قُدّر لأهل الأرض جميعا.